إنه الرابع من آل مستجاب

© دار خـــــــان
جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى ٢٠١٥

ISBN: 978 - 977 - 6299 - 90 - 14

دار خـــــــان
ص.ب: ١٣٢ رمسيس-القاهرة- مصر
هاتف: ٠١٠٠٥٥٣٩٤٧٢
E-mail: Darkhan.egypt@gmail.com
Dar Khan
P.O.Box 132 Ramses-Cairo-Egypt
Tel.:01005539472

سلسلة روايات عربية

إنه الرابع من آل مستجاب

تأليف/ محمد مستجاب

جميع الحقوق محفوظة للناشر، ويحظر نشر أو اقتباس أي جزء من هذا العمل أو كله إلا بإذن كتابي، ومن يخالف ذلك يتعرض للمساءلة القانونية.

محمد مستجاب

إنه الرابع من آل مستجاب

ألا تلتقى بالحزن،
بقول الحـــــــق،
باضطراب الكلمات فوق خطوط التنبيه،
أن تظل مبتسماً،
ومخدوعاً،
وأن تطارد صغار الماعز،
إلى حجور المعاني،
أن تتمنى لو كنت طاهراً
وهائماً، وبليداً، وقوياً، ونظيفاً،
فاخلع عقلك،مثلي،
واركنه جانباً،
قبل الدخول إلى هذا النص.

من لـم يمت بالسيف
مات بغيره، أما الرابع
من آل مستـجـاب فقد
عــاش بالســـيف دون
غيره.

فتى الفتيان وزينة الرجال، يتسلل بين الوهاد والتلال حتى تصل إلى خياشيمه الرائحة الناعمة الدقيقة، الواهنة، وتصل إلى عيونه الحركة الناعمة الدقيقة، الواهنة، وتبدو -هناك- بعيداً -بين غضون الاتساع الرحيب للرمال، تلك التكوينات الساحرة المتداخلة مع الأضواء الواهنة في الأفق: غزالة تغازل الهدوء والعشب والوجد والموسيقى، حينئذ ينطلق السهم الأبدي، سهم الرابع القوى، ليصبح بدن الغزالة- بعد قليل -تكويناً لذيذاً-وفاخراً - فوق سماط الصباح المتأجج شواء.

دعك الآن مما يقال أن مسألة الغزالة لم تحدث في تاريخ الرابع سوى مرة أو مرتين، وأن الأضواء الواهنة للصباح المبكر كانت تقوده -بالرائحة- إلى ذئبة أو نمس أو كلب أو كتكوت، أما الذي طارد غولاً بالغ الشراسة والحجم فكان مستجاباً آخر لم يكن من آل مستجاب، ومشهد أنياب الافتراس التي جاءت في أشعار أحدهم كانت لنوع من العمالقة الذين دأبوا على مداهمة قوم جاءوا قبل ذلك بدهور، الرابع في حقيقة الأمر كان طيباً رحوماً لا يسهل استثارة الدم في اشتهائه، لكنه -إن حدث واشتعلت شهوة الدم- فإن الطيور والغزلان والذئاب والكلاب والعمالقة والكتاكيت تغادر المكان، يضطرم العالم كله بالزوابع والأعاصير والرعود والبروق، ويقال إن النمل -حينذاك- كان

يبكي في سراديبه واجفاً، وقد روى أحد الرحالة الغربيين في كتاب شهير حكاية الغوريللا التي رآها بعينيه وقد وقفت على باب الرابع طالبة الأمن والأمان، لكن الراوي لم يفصح إن كان هذا باباً لخيمة أو لكهف أو لبيت أو لقصر، وهذا التساؤل يصدر مناً نحن أبناء البيوت في القرى والمدن الذين لم يعيشوا أو يعايشوا الصحراء -حتى ولو اخترقناها مرة-، وكل الصحارى مساحات صامتة لرمال باهتة على خرائط مغبرة فوق حوائط فصول المدارس، أو مجرد خلفية رومانسية (أي مشهد خلفي) لواحدة تشدو في شجن سينمائي وهي تحبو خلف ظل جسد حبيبها، أو هي -الصحراء- نتوءات تلال بعيدة يحول بيننا وبين الاستغراق في مشاهدتها ستائر نوافذ العربات، ولذا فقد امتزجت ألفاظ الصحراوات بالفلوات والبوادي والموت والتيه والضياع، وجاءت لفظة (التصحر) لتضع خطوط العداء الوجداني بيننا وبين هذه الآفاق الممتدة، الصافية.

وبينما نحن نخلص وجدان الرابع مما علق به من اشتهاء الدم أو الإحساس العارم بالتفرد أو الوقوع في مكائد الانتصار على العماليق والمردة أو سذاجة من لم يمت بالسيف مات بغيره (حيث يمكن استبدال السيف) بالترام أو الدراجة أو الأمواج أو الصواريخ أو الرصاص أو الأحجبة أو السكاكين أو سم الفار أو الطبيخ البايت صيفا) بينما نحن نحاول ذلك في إخلاص: داهمته تلك المسألة التي مزقت أوراقنا وألقت بأقلامنا في الفضاء، إذ جاءه -في المنام- هذا الصوت الآمر الهامس الحاسم: اذبح ابنك...، وحاول الرابع أن يتبين ملامح وجه صاحب الصوت، لكنه استيقظ، إنه واحد من الذين -بين فترة وأخرى- يأتونك في الحلم يداعبونك ويشاكسونك ويبيحون لك أن تشكو إليهم، والإناث منهن يأتين دائماً في السحر لتغرق معهن في نشوة نادرة منهكة، وكثيراً ما تتبخر الرؤيا فور الانتباه أو اليقظة أو اختراق البرد للمفاصل، حتى أن بعضها -مع كل ما فيه من لذة- لا يرقى لمستوى القص، فبعد أن توضأ الرابع وصلى الفجر، لم

يلبث أن أخذ يتجول في بقايا ذكريات القنص أو الصيد أو البحث عن مدخل لقصيدة جديدة، ثم نسى الأمر تماماً أياماً قليلة حينما جاءه هذا الصوت الآمر الهامس، الحاسم، اذبح ابنك...، اذبح ابنك وإلاّ ضيّقنا عليك...، لا إله إلاّ الله.

لا يمكن أن يخترق هذا المنام منامه -مرتين- عبثاً، لكن الرابع -واجفاً- انشغل في تسوية ألياف نخلة تمهيداً لفتلها لتصبح حبلاً، ثم تشاغل في تربيط شاغل -أي هودج- لذكر بعير مشاغب: حطم هذا الشاغل احتكاكاً بناقة عابرة بما لا يقتضي عرف التواصل بين الإبل، ثم تشارك مع قريب في نزح مياه بئر بدأت رائحتها تشكك فيما يكون قد سقط في عمقها، لكن الرابع ظل واجفاً، فانثنى إلى خيمة أخته وراء النخلة الكبيرة داعياً زوجها أو ابنها الكبير -أو أي أحد آخر كي يساعده في إخصاء الجدي المشاغب ليحول بينه وبين التهالك- ضموراً -خلف إناث الماعز، فاعتذرت له أخته لأن الجميع خرجوا مبكرين إلى خيام أولاد ضرغام لأمر لا تعرف تفاصيله، وكانت أخته خلال ذلك قد مسحت غبار الأريكة أمام الخيمة بقماشة مهلهلة داعية أخاها كي يستريح، والذي ما كاد يجلس حتى داهمته رغبة في التدخين، وبدأ يمعن في التباب والتلال وانبساط الرمال فظلت عيونه تتشبث بالسحب وتضغط عليها لتذروها اضطراباً ناعماً في الأفق، اذبح ابنك، إنها مجرد أضغاث أحلام تؤخر مضاجعنا بين أبدان الإناث ومناجم الذهب وصلصلة السيوف انتصاراً على الأعداء، ولم يلبث الرابع أن وضع ذراعه تحت رأسه ونام، دون أن يستجيب لذراع أخته الممدودة بكوب الشاي الأسود ذي الرائحة النعناعية كان سهلاً بعد ذلك أن يستيقظ الرابع فور أن لاحقته أشعة الشمس طاردة الظلال، وأن ينغمس مع زوج أخته- وهو واحد من أبناء عمومته أيضاً -في التناول الجميل للطعام الجميل، وأن تتراقص بين المأكول والمشروب أخبار عن أهلهم وأقاربهم المتناثرين بين الهضاب الصغيرة على اتساع الرمال، حكايات عن الغضب والزعل والعتاب والزواج والهجر والحق والحقوق، وكان طريفاً أن يعرف الرابع- لأول مرة -أن واحداً

من أبناء أخته يصادق مخرجاً في السينما أو في التليفزيون، حيث أصبح دليله في تصوير أطلال لهياكل ومعابد لبعض الكفرة الغابرين، وروى الرابع- في بهجة -أمراً قديماً- يعرفه الجميع دون أن يقطعوا طريق القص على خالهم مادام ذلك مبهجاً: تلك الموقعة الشهيرة التي وقف فيها الرابع رافضاً أن يقوم مخرج اسمه صلاح أبو سيف بتصوير مواقع خيامهم أيام أن كانت مضاربها قرب منطقة ديروط، كما أنه اعترض على تشغيل أي فرد منهم في عصابة (الوحش) الذي يصل به الأمر إلى قطع الطريق على قطار الصعيد، وحاول هذا المخرج الاستعانة بضباط الشرطة كي يرضخوهم فلما بدأت الأمور تتعقد بما قد يؤدي إلى صدام، انسحب المخرج دون أن يقول شيئاً، فكيف بالله يترك الرابع أهله يمثلون في السينما وهي حرام؟؟

وخلال احتساء الشاي ثم الكركديه ثم استحلاب حبوب القهوة السوداء المترسبة في قعر الكوب الصغير، عاد الرابع إلى خيمته الهاجعة تحت نخلات ثلاث، وظل فترة هائماً مع أغنية لأسمهان جاءت بالصدفة تحمل على مساحة العذوبة فنجان قهوة، كانت أسمهان جميلة، لعيونها سحر جاذب مفتول مع خيوط صوتها الرنان المتألق، تمنى لو كان قد امتلك -أو قضى حتى- ليلة واحدة -مع أنثى مثلها، وكل الحكايات الشائكة التي جاءته عنها لم تكن أبداً شائكة، فمثلها لم يخلق للشد والجذب ورفع المياه وتسخين الطعام وتنظيف الأرض من دم الذبح، كما أنها- أي أسمهان -لم تخلق- أعوذ بالله من لفظه: يخلق- لرفع روث الإبل أو تشذيب سعف النخيل أو ترقيع الخيام أو ترميم المراكيب أو تنقية الحبوب عزلاً لما قد يتسلل إليها من الشوائب، لقد رأى أسمهان في السينما تحت ظروف سوف يغفرها له الله، وحاول مراراً أن يجد ظلاً لها، أو رائحة، أو أثراً، في كل اللاتي تزوجهن من أهله أو من الوادي هناك -في الأفق- ولم يعد باقياً من هذا الأمل القديم سوى صوتها الذي يأتيه بين الحين والحين من المذياع -(الراديو أفضل)- أو من شريط التسجيل هذا الذي تمزق وأصابه

التلف، وقد أوصى لحد المناشدة، وناشد لحد الاسترحام -واحداً من أقاربه يعمل سائقاً لقطار أو ما شابه- أن يحضر له في المرة القادمة شريطاً جديداً لأغنيات أسمهان، ولا زال قريبه غائباً في دورة سنوات طويلة، إن أسمهان خُلقت له، وهو لا يضيق أبداً بما يعترف به حيالها بين وقت وآخر، حتى لو كان الأمر ينتهي بعيداً في ليالي الأنس على حدود القاهرة أو الفيوم أو مطروح أو فيينا- دون أن يهتم بالمرة أين تقع فيناّ بليالي أنسها المبهجة، يكفيه أن يشتعل أوارها الملتهب اللذيذ، لتتسامى الأبخرة في الأعالي، وتتضوع الأصوات الملائكية بالتراتيل، ليخرج من بين كل ذلك نفس الشبح الذي يظل يقترب، ثم يتوقف، ثم يصبح السكون علامة لما هو مقبل: اذبح ابنك.

استيقظ الرابع معروقاً مقطوع الأنفاس، أحس بأن الحلم لو استمر وقتاً أخر لوقع في غياهب الجُب الغامض، اذبح ابنك، وتخترق عيونه الآفاق الصحراوية حتى تنهار رموشها تحت حواجبه الكثة، الله هو الغافر الغفور، وهو الراحم الرحمن، وهو القادر القوي الملك القدوس، أمه التي ولدته رأت في أخطر أحلامها أنها تضع القمر تحت أقدامها والشمس فوق رأسها، وعندما أثار الحلم اندهاشها توجهت إلى زوجها (الذي لا نعرف بشكل مؤكد ترتيبه في آل مستجاب -ربما لأنه لم يكن ذا شأن كبير في قومه) وقصت عليه مشهد حلمها الذي لا ينسى: القمر تحت أقدامها والشمس فوق رأسها، فغضب زوجها غضباً شديداً، لكنه أخذ نفسه بالحكمة والتأني والهدوء حتى لا يضحك أحد من القبيلة عليهما، وأمرها أن تعيد صياغة الرؤيا لتجعل القمر فوق رأسها، وقال لها أن القمر سوف يظل بحنانه ورقته وجماله فوق الرؤوس هالة لا تضمر ولا تذبل، هو- القمر -الذي يصادق لياليهم ويريح أفئدتهم ويصنع للأشعار أجمل إيقاعاتها، هو- القمر -الذي يتهلل ويتسع ويبتسم ويبتدر، يتهلل هلالاً ويتسامر ابتساماً حتى يصبح بدراً ثم يبدأ- القمر -لحنه النوري الهامس بين الكلأ والعشب واجترار الإبل، يظل يتقلص ناعماً أليفاً حتى ينزوي

-آخر الدورة- في شحوب أنيق بالغ الشجن، فكيف بالله (يا بنت صائد الجراد) تتجرأين لتلقي بمثل هذا الرفيق تحت المراكيب، تاركة الشمس اللاهبة النارية الشرسة تعلو في الأفق.

كانت الزوجة المسكينة قد خذلتها أشعة حلمها، تلك التي اندحرت تحت وقع تفسيرات زوجها، إنها تشارك أقواماً آخرين في إعلاء شأن الشمس على حساب القمر، قمرهم الودود الحنون، وشمسهم الملعونة، إنها الأنثى التي عبدها- أعوذ بالله- هؤلاء الذين يعيشون بعيداً وراء الأفق، عبدوها وسجدوا لها ورفعوها رسوماً بارزة فوق هياكلهم ومذابح صلواتهم، وبالتالي فقد بدأت الزوجة -أم مستجاب الرابع- في صياغة حلمها بما يتوافق مع رؤى زوجها، رفعت القمر فوق هامتها وألقت بالشمس في الوحل تدوسها الأقدام، حتى أن هذه الأم الحنون -أم الرابع- بدأت تعاني من رغبة ناعمة في هرش سيقانها، ثم ارتفعت درجة الهرش الناعم لتصبح كرشاً -أي رغبة دامية في الهرش- فتضخمت أقدامها، وأصاب جلد سيقانها بثور ودمامل، وبدأت البقع تغزو بطنها وصدرها وحلمات أثدائها، وقد حاولت المرأة الطيبة أن تعيد ترتيب الحلم ليعود إلى أصوله: الشمس فوق الرأس والقمر تحت الأقدام سعياً للعلاج ومحاولة للشفاء، لكنها اضطربت مما أسقط القمر في وحل الشمس، كانت جنازتها بالغة الأسى، في ذاك اليوم البارد العاصف الغائم، والذي خلا من الشمس ومن القمر، عدا فتحة ضئيلة لمقبرة مخنوقة تحت الرمال، اذبح ابنك، وأفاق الرابع على هذا الصوت المدوي من جديد: اذبح ابنك، أي أنه لن يستطيع إعادة صياغة الحلم فيذبح خادماً أو عبداً أو خروفاً أو جدياً أو أرنباً، اذبح ابنك، ولم يلبث -بعد عدة ليال مؤرقة مرهقة- أن يحمل الرؤيا ويتوجه بها إلى الفاهمين المدركين.

لا يميل هؤلاء القوم أن يفكروا بصوت عال فيما قد يتحور ويتفتت متناثراً فيفلت من أيديهم، والرابع -في بساطته- يميل إلى الهمس دون الصراخ، هو الذي يمكنه أن يحمل شكواك في قلبه، ويترك إحساسه الناعم يتسلل إلى مشاعرك بشكل أبوي رقيق، لكن الرابع -في ذلك اليوم- كان قد وقع في ارتباك قلق الأرق، لم يحس أنه يعيش وحده إلا اليوم، أهله حوله يرعونه مأكلاً ومشرباً ونظافة وصلاة، أخوته وأبناء أخوته، كلهم يتحلقون بخيامهم حول خيمة الرابع، الذي لم يكن ملكاً أو سلطانا أو -حتى- شيخاً للقبيلة، لكنه كان أمراً آخر وشيئاً آخر، هو القادر الفاتك الحليم العزيز المبتسم المدرك الفاهم، فما كان لأهله أن يكونوا في فرح أو حرب أو غم أو مناجزة أو مسامرة دون أن يكون له الركن الركين والموقع المؤثر والنصيحة المسموعة، وكل الأمور والأوامر التي صدرت في الملمَّات كان للرابع صوته وبصمته وتوجيهه فيها، فهو الذي كان وراء الفتك ببائع الكمّون والشيخ القادم من جوف الوادي إثر إشاعة ربطت بينه وبين واحدة من صغار فتيات جناح القبيلة -في آخر الشمال- ثم كان هو الذي قطع الطريق على الطبيب البيطري -القادم من جوف الوادي- والمصمم على عدم ذبح أي خروف أوجدي دون تصريح منه، ووراءه كانت حادثة المجموعة الطبية التي جاءت -من جوف الوادي- ساعية لرش الخيام بذاك الغبار الأبيض منعاً -فيما يقال- لتفشي الأمراض، ثم إن الرابع هو الذي كان وراء عدد لا يحصى من مجالس الصلح ودفع ديات صرعى الاحتكاك سواء في مربعهم أو في تلك المربعات الموغلة في الفيافي والوديان، وهو الوحيد الذي قال فيه ذلك الشاعر الريفي ذو الربابة تلك القصيدة الشهيرة التي مطلعها:

لو كل راس فيها حتة من فنه
كانت جبال الصخر رقصت على فنه
ما يملك الدنيا غير باريها وخالقها
والرابع القادر يحب الباري على فنه

وقيمة هذه القصيدة أنها اعتبرت الفن وحسن الإدراك سلاحاً أساسياً وصفة مؤثرة في الحياة، وهو الأمر المؤكد للمقولة الشعرية الموروثة التي قررت أن الرضيع عندما يبلغ الفطام تخرُّ له الجبابر ساجدينا، حقيقة معروفة لا مبالغة فيها يحبها عيال المدارس ومعلمو الكتاتيب ترنموا بها، ذات وباء طاحن أودى بعدد من أطفالهم المفطومين، كان ذاك العام ملعوناً، لا يمكن أن نقارنه بأعوام تلك الدهور التي قام فيها فرعون المنطقة بذبح الذكور من العيال سعياً إلى استمراره في الضلال دون أن يعوقه واحد منهم (جاءت الأخبار بأنه سيصبح -بعد ذلك بسنوات- هادياً وواعظاً ورسولاً) ولا يجوز للرابع أن يغمض عينه عن حكاية أخرى يقوم فيها نسر أو صقر أو غراب -لا يدري- بخطف صبي وإلقائه من السموات العلى -في جزيرة منقطعة بين البحار، ليعيش وحيداً مطارداً مرعوباً من الذئاب والثعالب والخفافيش، اذبح ابنك، وعادت الرؤيا الآمرة الملحة تضغط من جديد، اذبح ابنك.

كل أبواب الخيام أو الزرابي أو الأكواخ ظلت ترقب الرابع من آل مستجاب وهو يتجول بينها، لم يكن يتجول بل كان ساهماً سائماً شديد الوجل من الشمس والظل والنسيم، يرقب الأرض والسماء تحت إيقاع هذا الأمر: اذبح ابنك، جوانحه تمتص الأحزان القديمة وتفرزها قدرات فائقة في التحمل، وكل الرؤى التي مرت عليه في الأحقاب الماضية ظلت تصنع قلقاً خفيفاً لا يلبث أن يتبخر مع الحكايات والأهازيج والمرح، فما كان الرابع فرداً واحداً يتجول بين الآكام ومرابط الغنم، إنه الأليف المخلص الذي يعرف مدى اتساع قلوب أهله لاحتضانه، لاغتساله من القلق والوجل، لتطهيره من دنس غامض يخترق صفاءه ونظافته، لقد بدا ذلك واضحاً في هذه العيون التي تابعته، عيون من فرجات الخيام وكوّات الأكواخ، تلمع هذه العيون بالابتسام ثم تنغلق على إحساس شائك بالقلق عليه، وكان أول من التقى به الزوج الثاني لأخته الوسطى، تبادلا التحية والابتسام لكن الرابع لم يفصح عما يوخزه ويوهن

حديثه الذي كان في كل الأوقات بهياً طلياً، وظلا يتجولان معاً حتى ذاب دفء الترافق والهمس، اذبح ابنك، وما كاد الرابع يُفصح عن تلك الرؤيا الضاغطة حتى نكس مرافقه رأسه ليقولها صريحة واضحة: لابد من استشارة ذوى العلم، فإذ بالرابع يجد نفسه يسير بمفرده، كان مرافقه قد تجمد ممعنا من بعيد، وكانت الرمال قد افترشت مساحات المخ المرتاع.

ولا نعرف حتى الآن أين قضى هذا المستجاب بقية اليوم، الغيوم تستدرجه لتسوخ أقدامه في الرمال، والتلال تداعبه ببقايا ظلال منسوجة على إيقاع غامض لأهازيج قديمة: ما يركب الليل غير الغم والعتمة، أعوذ بالله، ذلك أن الرجل فوجئ بأعداد غفيرة تتجاوز العشرة من أهله يبحثون عنه، لقد تفشى أمر الرؤيا، ظهر ذلك واضحاً وهم يضاحكونه، وهم يمازحونه، وهم يحملونه حملاً إلى حيث يجب أن يكون وسطهم، بينهم، دقوا الدفوف ودفعوه دفعاً كي يمسك بالسيف محاوراً ومناجزاً، صفقوا لحركته المرنة الجميلة التي هزم فيها عدداً وافراً من الخصوم، من المناجزين، كانوا فرحين وسعداء، وكانوا جزلين وشديدي الصخب والصراخ، وكان الرابع فرحاً وسعيداً، مما هيأه أن يلوذ -فور غروب الشمس- بفراشه، نوماً سعيداً، وسعادة قصوى.

لم يدُم نومه طويلاً، تقلب في فراشه، أمعن في فروج نوافذه العليا، ظلت السماء ساكنه تاركة أمر النور الهزيل للنجوم، خرج من الفراش، ضاغطه ضجيج النهار طبولاً وسيوفاً وتصفيقاً، ثم خرج من الدار جذبته رغبة ناعمة أن ينشد شعراً أو أن يسرد حكاية، من زمن طويل لم يقترب من أنثى، أعوذ بالله، وخرج المربع كله، في زمنه الماضي كان يمكنه أن يتبلغ في الصباح بأنثى، وبعد الغداء بأنثى، وفور انقضاء سمر الليل بأنثى -وأحياناً اثنتين- وكان ذوو اللسان الطويل من قبيلته، أي هؤلاء المرحون المهذارون الساخرون المبتسمون، يناجزونه بالأقوال والتعليقات الشائكة والوردية وذات الرائحة الفاخرة، قيل

أنه ما يكاد يمتطى أنثى حتى تخترق آهات عذاب النشوة نوافذ الأقربين، وذات مرة -وهي حكاية موضوعة مفتعلة- امتطى واحدة من زوجاته فداهمتها -عند أوج التلاحم- حالة نادرة من الانفعال حالت دون انفصالهما عند انتهاء الذروة والركون إلى السكون، وقيل أن هذه الحالة تحدث دائماً للكلاب حيث يصعب على قطبي التواصل الانفصال إلا بعد جهد جهيد -أي بعد أن تتجمع الكلاب الأخرى حولهما- مع تصفيق العيال والعابرين، لدرجة أن السخرية تصل بهم إلى مطاردة الكلب والكلبة بالطوب والأصوات والكلمات الصاخبة، اذبح ابنك، فكاد الرابع - حينئذ- يقع صريع الصرخة المدوية، كان الأفق الممتد في الصحراء مفعماً بالظلام المتهافت شجناً مع بقايا ضوء السموات العلا، أعوذ بالله وبدأ يتراجع منفصلاً عن ذكرياته عند أوج التذكر، لكن الصوت القادم من آخر أستار الليل ظل واضحاً: اذبح ابنك، واندفع الرابع شديد الصلابة إلى سيفه وإلى مسدسه وإلى بندقيته، جلس أمام داره -رغم العتمة- ليفك السيف وجراب السيف ويعيد تركيبهما، ثم يفك المقروطة -أي المسدس الكبير أو البندقية الصغرى- وينظفها ويملأها بطلقاتها (والتي يتعب كثيراً في العثور عليها بعد اندثار هذا الصنف) ثم يفرغها، بعدها لاحت للنجوم فرصة أن تشحن صدره بالسكينة، فجاء الأمر هادئاً وهاجس الوسواس الخناس، الذي يوسوس في صدور الناس، وكانت الصلاة ملاذا بين أهله في المسجد الصغير القريب، فظلت الشياطين تقف بعيداً حتى خرج، وما كاد يهم بارتداء مركوبه الأثير حتى انفلق دماغه بالأمر الحاسم: اذبح ابنك.

وكانت المرة الأولى التي يجد الرابع نفسه فيها يبكي كالأطفال.

إلى ذوي الدراية -والعلم- لجأ الرابع، كانت الشمس تطارده في منتصف الليل والنجوم تعابثه في عز النهار، وبين يدى شيخ قديم يقال له (التائب) بكى الرابع وانتحب، ثم قص أمر هذه الرؤيا، لكن الشيخ التائب ظل ممعناً في وجهه دون أن ينطق، ثم أشار له أن يرحل، ثم إن الشمس كادت تجذبه إلى بئر (المجذوم)

التي -فيما يقال- قتل فيها ثلاثة من قبيلته في موقعة هذر عابث، وما كاد يستوي في الظل حتى فوجئ بأنه يمشى دون ظل، بل إن الشمس دارت حوله مرات، ثم إن الشمس تسكعت في السماء مرات، ثم إن الشمس وقفت على دماغه مرات، فظلت دنياه تتساقط بين الآكام وتحت الكثبان وفوق الوجوه الكالحة للأحجار، فكيف ضاع ظله والشمس الواقفة على دماغه تطلق النور الأبدى حرارة مرهقة، فساخت أقدامه في الرمال مع أن كل الناس يعلمون أن واحداً في هذه الصحراء لم يتقافز على وجه الأرض كما تقافز، حينئذ اجتاحته الأعاصير وهي تصرخ: اذبح ابنك.

وعندما أفاق الرابع وجد نفسه في ذات فراشه، وأهله حوله يغمرونه بالعطف والحب وفنجان السفوف، وكان مسحوق السفوف يمخر في فمه ليطلق في الجمجمة أسياخاً من النار أو رصاصاً من البنادق، فاستمرت أيدى الرحماء تمسح على العنق والجبهة والأذنين، ثم بدأت أصوات إيقاظه تتناغم محاولة المرح، شيوخ قبيلته ورجالها يريقون الابتسامات الحانية في هذا الضوء الخافت، ثم كان كوب الفوار مع سنة أفيون تفجر تحت اللسان ومدخل الحنجرة أواراً من مرارة مفزعة لم تلبث أن استكانت إلى مرارة عذبة تستثير الرغبة الحادة اللذيذة في الاستحلاب، حينئذ أصبح الوقت مناسباً كي يطمئنوا عليه، وأن يقتربوا منه أكثر، وأن يعودوا فيتلمسوا بأصابعهم أديم جلده الذي فترت ناره، حتى أنهم ساعدوه ليجلس، وأن يبتسم -في افتعال- كي يطمئنهم على نفسه وجسده، وأن يستند بظهره إلى وسادته الضخمة، وكان الصمت قد حل على الجميع، والسكون استحال إلى مجرد أنفاس لسجائرهم المتساقط رمادها على أكلمة الصوف، فأصبح الجو مناسباً ليتكلم شيوخه وعارفوه ومحبوه والذين يحملون له كل مشاعر الحب والاحترام.

- لابد أن تذبح ابنك

فظلت عيونه تهوم في أركان الدار -أو سقف الخيمة- أو أصوات الرياح المندفعة من الكوات والنوافذ، نعم لابد أن تذبح ابنك، وكان واضحاً أنهم اجتمعوا وتناقشوا وتصارحوا وتضاحكوا قبل أن تمتد أيديهم إلى أكواب الشاي..

لقد حدث ذلك من قبل، فقد اجتاحت الرؤيا واحداً من أجدادهم القدامى، وكل الناس في هذه الفلوات وكل هذه الوديان، يعرفون الحكاية منذ البكور، مرصودة في الكتب وعلى الجدران وفوق أديم الأرض، ومرسومة في طبقات النسيم وتحت إبط الريح وعلى واجهات المنازل وفي مسارب الجماجم وسراديب النور القديم، ويعرفون أن الجد القديم حاول الهرب من الرؤيا والفرار من تنفيذ الأمر، ثم لم يلبث جدهم القديم أن ضاقت به نوازع الهروب من ضغوط هذه الرؤيا، فلم يعد ثمة مفر أمامه إلا أن يواجهها، وكان يوم المواجهة رهيباً، إذ أنه -في احتفال لا يزال- فيما يرى الكثيرون -أنه لا يزال قائماً حتى اليوم- أمر ابنه الأثير -وأغلى أولاده وأكثرهم تعمقاً في قلبه- أن ينام على وجهه أو على ظهره -لا نعرف- كي يتحول إلى شهيد ذبيح، واهتزت السماء يومها لهذا الموقف الإنساني الرائع، وهرعت الملائكة تناشد السماء أن تبعد الشياطين عن الموقعة، وتشبثت يد الجد الكبير بتلك السكين التي انكسر ضوء البرق على نصلها المتألق، وما كادت يد الجد -الأب- تتحرك في عنوان التصميم كي تداهم رقبة الابن -تنفيذا واجباً للرؤيا- حتى ضجت السماء بالإعجاب المندهش لهذه القدرة الفذة والإرادة الرائعة، حينئذ جاءت الملائكة -بأمر السماء- بذلك الكبش تسوقه في ترتيل صادح، ليفصلوا بين حد السكين ورقبة الابن، فاستشرت في الكون كله، بين السحب والنجوم والحوائ والآبار، كل أنواع الترتيل الفرح الممتثل، واندفع الحد اللامع القاطع للسكين الأبدية إلى رقبة الكبش، لينبثق الدم غزيراً- نقياً -طاهراً- وسط أهازيج القلوب، ملأ

الدم الصحارى والوديان ودروب السماء، إنه الفرح العظيم للفداء العظيم..

لابد أن تذبح ابنك، لا نجاة لك -ولا نجاة لنا- إلاّ بالامتثال للحلم، دعك من الفرار والهروب والمناورة، وعليك أن تظل مؤمنا بالله- عز وجل، هو الذي قبل الفدا وأتاح الفرصة النادرة لخلاص الابن، غير ذلك لا مناص من الهلاك.

فظل الصمت سادراً، تناثرت بقايا الكلام في الحلوق والعيون وآخر بقايا غبار السفوف. لابد أن تقتل ابنك...

وخلال ذلك الصمت الواخز، بدأت الرموش تهتز، والقلوب تزداد اضطراباً، والأمر الحاسم يتردد في الأنفاس تدفقاً بطيئاً نحو النجاة..

كيف للرابع من آل مستجاب أن يقتل ابنه، وهو لا ابن له نعم: لا ابن له...

الرابع من آل مستجاب لا ابن له، وعندما كانت تطاحنه الرؤيا لم ينتبه كي يقدم الاستدراك اللازم لما كان يعرفه الجميع، لا ابن له، وعندما أحاطته القبيلة بالحنو والاستحلاب لم يقترب واحد منهم لمواجهة الموقف من هذه الزاوية، فكيف إذن تكون الأمور...

فالرابع ظل طوال حياته فارساً قوياً عنيداً عتيداً كريماً قادراً، وكانت أية فتاة من فتيات قبيلته تتمنى أن تكون زوجة له، وبالفعل تزوج -من زمن بعيد- بابنة عمه الجميلة الهادئة التي كانت ظبية أو غزالة باسمة، وليلة العرس خرج وسط محبيه كامل التأهب والسعادة، والسيوف حوله تتراقص وتتدافع وتنعكس على نصالها بروق طلقات الرصاص، وفرسان القبيلة أحاطوا به في عنفوان الزهو والصياح والمرح، وما كاد يدخل إلى عرينه -أقصد بيته- حتى كان الأمر الذي لم يصدقه واحد حتى الآن: بحثوا عن العروس -ابنة عمه- بين الخيام والديار وثقوب الأرض وفرجات السماء فما وجدوها.

واغتمت القبيلة شهوراً، زاغت عيونها وذبلت ألسنتها ونشف ريقها وكاد العار يقضى عليها، حتى أنها كادت تهلك عمرها بين الظلال المتناثرة دون النزول الممتع إلى الوادي هناك بعيداً، إلى أن جاءت العروس جثة ممزقة داخل جوال من خيش الريف، ومنحوا ذاك الذي عاد بها نقوداً وشكراً ووداعاً صامتاً، ثم لم يلبثوا أن سعوا خلفه فقتلوه حتى لا يفشى أمرهم وأمر ابنتهم.

لم يلبث الرابع أن استعاد قدراته في الاشتعال واللذة، لكنه ظل ممعناً في الوادي، في عمق هذا الريف الممتد وراء الآكام والتباب، كانت الحكايات تتوارد عن فتياته اللاتي يأمرن القمر بالغياب ليسطعن في مكانه، وسعى مع رفاقه حتى تزوج من واحدة -ريفية- لكنها أكثر بهاءً من ليلى العامرية، كانت ليلة الزفاف أسطورة تعويض عن حزن قديم، يقال إن الخيول والطبول ظلت تتراقص على الإيقاع الشجاع الباسل القوي الساحر من وسط الوادي حتى مدخل اللذة الكبرى، وأن القوم -وضيوف القوم- ظلوا يأكلون ويتراقصون ويتضاحكون حتى أعلن الليل أن يتركوا للعروسين فرصة الالتقاء، وقد كانت العروس بالفعل تعويضاً واضحاً عمّا ألّم به من قبل، الجمال والهدوء والمرح والبشاشة، والإحساس الغامر بالمودة والامتثال.

وبعد شهور -أو أسابيع- اختفت الزوجة، قلبوا عليها البادية والريف والحضر فلم يجدوها، فلتذهب في ستين داهية أو ألف لعنة، فقد استعاد الرابع زهوه وكبرياءه، واستطاع أن يظل مرحاً وفارساً وإنساناً طيباً وقوياً.

ولذا فقد تزوج -فور ذلك- بواحدة من شمال الريف: قضت معه شهوراً -أو أسابيع- ثم اختفت، ثم تقدم للاقتران بواحدة من قريباته -في الطرف الآخر من البادية- لكنها ماتت بعد الموافقة على الاقتران بيومين وقبل الدخول عليها بثلاثة أسابيع، ثم عاد إلى الريف لينجح في الزواج بتلك القصيرة المثيرة للمرح

والعبث -والبالغة الجمال، غير أنها- وبعد أسبوع واحد لجأت إلى أبيها -هذا الفلاح- طالبة التفريق بينها وبين زوجها، كانت تبكي في حرارة ولوعة، وحاولوا أن يصلحوا بينهما، أو أن يعرفوا أسباب الكارثة التي تدعوها لذلك، فلما اشتد أمر آل مستجاب عليهم معتبرين ما حدث من هذه الفتاة القصيرة مساساً بهم يستوجب العداء، رفض أهل العروس هذا المنطق، واحتدوا، وكادت تقع صدامات قد تودي بالكثيرين، لولا تدخل ذوي الشأن الذين انتهى بهم القرار إلى حصول آل مستجاب على التعويض المادي اللازم.

ولم يكن صعباً أن يتكرر زواج الرابع من أنحاء متناثرة في الريف والصحراء، ولم يعد يثير التعليق أو الحزن أو الاختناق أن تظل العروس معه يوماً أو يومين أو أسابيع أو شهوراً ثم تفر هاربة في تسلل دقيق وغريب، رغم كل أنواع الحراسة والمراقبات واليقظة والانتباه، كانت العروس دائماً تهرب..

لماذا؟؟ كانت العروس الأخيرة هي الإجابة الحاسمة ضد أي إجابات مضطربة، قالوا إنه يخلو من الذكورة، وشهد كثيرون أن بعض العرائس هربن متكورات البطون، وقيل أنه بخيل وشحيح وكل دلائل سلوك الرابع من آل مستجاب تعلن صراحة مدى اعتزاز قومه بكرمه والذي فاق به -كما هو معروف- كرم حاتم الطائي، وقيل أنه كان ممسوساً تنتابه حالات من التشبث الخانق بأنثاه في أوج اللذة، لكن ذلك يعد مفخرة لأي أنثى، وقيل إنه كان لا يستطيع المعاشرة الليلية دون أن يمرح ويتراقص ويتطارد مع أنثاه، ليت ذلك يحدث من كل الرجال لما كان ثمة طلاق واحد.

فالعروس الأخيرة كانت فقيرة يتيمة، يعولها عمها الفلاح الذي يعمل -آخر غرب الوادي- عاملاً في عزبة واحد من الأثرياء، وكان الزواج من الرابع -مهما

كثرت علامات الاستفهام حول الرابع- حلاً مريحاً بالنسبة إليها من جميع النواحي، وهو حلّ مناسب للرابع من كافة الوجوه، البنت لم تكن جميلة -بالمفهوم الشائع للجمال الشكلي- لكنها كانت ذات بشاشة والتماع في العيون، كما أنها كانت -مع كل الخفر والحياء- يمكنها أن تضحك في طفولة فتستثير في العالم موجة من الصخب الصغير، ولم يكن الأمر يحتاج إلى أن الرابع سوف يعرض قدراته الخاصة، كلا الطرفان يحس بما في أمورهما ما يدعو إلى عدم التدقيق، مع التوسع الشديد في أن الرابع خطب تلك الفتاة من قصر الثرى الكبير -إنها ضرورات تعويض الرغبة العارمة لدينا بالفخر أو الفشخرة- مع كل الود لكفيلها هذا العامل الزراعي الفقير وبالفعل تم الزفاف في سرعة وهدوء، وحمل آل مستجاب العروس الجديدة في احتفال بهيج، ليس بهيجاً فقط بل وصارخاً وبالغ الزهو والضجيج، كل القرى في الوادي خرجت تشارك في الاحتفاء بالموكب الذي ازدان بألعاب التحطيب والفروسية وإطلاق الرصاص على وقع الطبول المدوية، كان هذا الحفل بالذات إعلاناً واضحاً عن قدرة آل مستجاب على القفز فوق آية أقاويل أو شائعات، وكان الرابع وقد امتطى حصانه الأثير -وردة متألقة مبتسمة شديدة التعالي والتواضع، يحيى- في هدوء الفرسان -كل المصفقين، رافعاً ذراعه إلى أعلى ليصل إلى قمة الاعتداد والسرور والكبرياء، وكانت العروس المجلوّة في هودجها المزخرف بالحب فوق الجمل الهادئ تضحك مع رفيقاتها مشحونة بكل لحظات العمر السعيد، إنه التعويض القدري لكليهما: عريس شاءت ظروفه أن يعاني عذاب الدنيا من زوجات سابقات، وعروس شاءت أقدارها أن تعاني من فقر تعرفه الكثيرات في الوادي، وتنتظرن فرصة الخلاص- والتي كثيراً ما أودت بفتيات عديدات في عذاب انتظارها -إنها الرحمة الكبرى المهداة إلى واحدة مثلها جديرة بكل التعاطف الجميل.

وبعد أن انفض الفرح، وسكنت العروس إلى صدر فارسها، أي بعد أن أرهق الجميع من أعباء هذا الاحتفال الذي أصبح حكاية على كل لسان، أي بعد ليلة أو ثلاث أو خمس، جاء الخبر الذي ظلت القلوب متوجسة أن يحدث.... لقد هربت العروس...

ووضعت القبيلة يدها على صدرها -هذه المرة- في ضيق واختناق، وبسرعة شرسة تكون الوفد الذي سيتوجه إلى أهلها هناك في الأعماق، أي في المساحة الممتدة للوادي بين الصحارى شرقاً وغرباً، لم يكن وفداً مسالماً بل كان سرية مسلحة وضعت في يقينها أن الأمر هذه المرة سوف يدعو للقتال.

وآخر نهار السفر الصامت الطويل، افترشت السرية المسلحة بيت الثري الكبير، والذي على أطراف حديقته يقيم عم العروس الطيب الذي ظل طوال حياته يحمد الله على قدرته أن يتكفل ببنت أخيه دونما صراع أو صراخ، كان أقصى ما قد يواجهه أن يخلو بيته الصغير مما تحتاجه هذه الأسرة الصغيرة من حبوب أو غموس.

وفي البهو الكبير ظلت عائلة الرابع تكتم غضبها وعيون رجالها تكاد تتقد غيظاً، وكان الطلب واضحاً: أن يستعيدوا العروس لينتقموا منها بطريقتهم، وعندما جاء عمها وألقى السلام في استكانة مضطربة بالغة التوجس، لم يقم أحد من السرية المسلحة بالرد على التحية بالحرارة الواجبة، مجرد غمغمة فيها من الضيق ما تعنيه الخطوة التالية.

لكن كل ذلك انقلب بسرعة إلى جدل شديد الضجيج، حتى بعد أن أشار بعض العقلاء أن يعرفوا سبب السلوك المرفوض من هذه العروس، بهروبها الذي أثار من جديد أقاويل معروفة -وقديمة- عن كل التجارب التي مرت

على هذا الفارس العظيم، لكن عمها الطيب رفع يديه للسماء معلناً أن الله معه، وأنه حاول أن يثنى بنت أخيه حتى يعيدها إلى عريسها، ثم توقف الرجل -مستسلماً- عن الكلام، فداهم الجميع الصمت، وهو الصمت السابق دائماً على الموقعة المتوقعة... وهو الصمت الذي يدهم أي ضجيج لمدة ثوان أو دقائق.. كثيراً ما تتغير فيه أمور كثيرة، فقد فوجئ الجميع بالعروس تدخل البهو الكبير بمفردها، البنت الطيبة في أقصى حالات الرغبة أن تقول، وأن تفصح، وأن تموت بعد ذلك..

إن الرابع، عريسها الجميل الكريم، المتألق الفرح الشجاع، والذي ذابت بين أحضانه في حياء الأنثى ليلة الحب العظيم...

هذا الرجل.. وأمعنت البنت في كل الوجوه المشدودة إليها...
وأشارت في هدوء الاستسلام الرائع، لتهمس بصوت واضح جليّ: رائحته لا تطاق، ظلت أحضانه- في الليلتين الماضيتين- تفح بالعفونة، عفن كاسح مروع فاتك...
ثم أحنت البنت رأسها، وهمست وعيونها في عيونهم: اقتلوني الآن...
حينئذ -وفي لحظة- وقف واحد من عتاة القبيلة في هدوء، وقال في قوة هادئة وبالغة:
- روحي، ربنا يستر عليك...

وتوجه نحو الباب، وكل الرجال -بما فيهم الرابع- ساروا صامتين خلفه...
إلا أن الرابع من آل مستجاب كل طوال الدهور التي مضت يتحرك وقد امتلأ جوفه بحكاياته التي لا تصلح للقول والسمر والمرح، حتى أفراد أهله انسحبت كل المواقف من أذهانهم، لكن الأمر عاد طاحناً طاغياً هذه المرة، في تلك الرؤيا الضاغطة، اذبح ابنك، إنه يعلم، ويدرك، ثم إنه متأكد، أن في هذا الوادي الممتد

في سفح الرمال يعيش ابن له، في يده -أو فوق رقبته المنحنية أسفل السكين- الحل الشافي لإنقاذه من هذا القلق والخوف والتوجس، اذبح ابنك، وسوف أذبحه، والله هو المنقذ.

لم يعد ممكناً أن نقف مكتوفي الأيدي والأحداث تتداعى، فالرابع لم يكن أكبر قومه ولا أكثرهم علماً أو دراية، وقومه لا يميلون أن يفرِّطوا في حقه لديهم، وقدرتهم على مراعاة الحق تخترق الآفاق منذ كانت الأرض بسيطة -ومنبسطة، حتى انتشرت المزاعم بأنها مجرد كرة تدور أو تقف، وليس من الواجب أن يغمضوا عيونهم عن هذا القلق الواجف الذي أصاب الرابع، اذبح ابنك، لأنهم يوقنون في ذات الوقت بأن الله لن يتخلى عنهم وعن رابعهم، لقد أحسن الرجل طوال حياته- كما أحسنوا -عطفاً على المسكين وابن السبيل وصاحب الحق واللائذ بهم حماية من الأعداء، ونحروا الإبل وأقاموا القباب وكفلوا اليتيم وداهموا مزارع الخنازير وبيوت البغاء وقوارير الجعة وصليل الأجراس والهياكل الوثنية التي لا تزال تؤذي عيونهم عندما كانوا يجوبون الوادي، وأنصتوا لأصوات الرؤى ومشاهد الأحلام- عندما يحسون بأن الأمر يتجاوز مجرد الرؤى والأحلام، هناك منهم -والحمد لله- من طلق زوجته تلبية لحلم ظل يتكرر، ومنهم من دفع كفالة إفراج عن متهم من الحبس تنفيذاً لهاتف السحر الذي أشرق في العتمة المقبضة، ومنهم من رفض المشاركة في مؤامرات هؤلاء الناس -في الوادي- حينما يحتاجون إلى السلاح أو الذخيرة أو حتى إرشادهم إلى استخدامه، هم الغائثون المنجدون الكرماء الأقوياء -جميعهم- في خدمة أخيهم وأبيهم وابنهم مستجاب الرابع.

كان الرابع مرهقاً لكنه ظل يقظاً ومبتسماً، من زمن طويل لم يهبط إلى الوادي، أي منذ تلك الكارثة التي ظلت تجلجل في خاطره طويلاً، رائحته العفنة لا يمكن لأحد أن يتحملها، الملعونة بنت الملعون، ثم هذا الموقف الذي

-في ذاك الزمن- قامت به قبيلته: روحي لحالك -ربنا يستر عليك، يعني قبول الجميع لما باحت به الملعونة بنت الملعون، فلتذهب لحالها إن الله غفور رحيم، لقد وجدت قبيلته فيما أعلنته هذه الريفية الفقيرة الإجابة الحاسمة للحيرة التي انتابتهم زمناً تحت سطوة السؤال: لماذا تهرب كل الزوجات من مستجاب الرابع، وربما كانت هذه الإجابة الشافية سبباً وراء انصراف قبيلته دون أن يلقنوا أمثال هؤلاء القرويين الدرس الدموي المناسب، إنه مؤلم أن يفكر في ذلك وحده، الحملة تتشكل بسرعة، إذ جاءت الخيول واستعد فرسانها بالبنادق، بل إن ثلاثة أو خمسة منهم حملوا المدافع، وبعضهم لا زال يتمنطق بالسيوف القادرة على مغازلة نور الشمس في انعكاساتها المثيرة للحلم، وقبل أن تتحرك هذه الحملة وقف مستجاب السادس فوق صهوة حصانه ليعلن: إنهم ذاهبون إلى الوادي في مهمة واضحة وبسيطة، إنهم لن يعتدوا على أحد، ولن يتشابكوا مع أحد، إنهم سوف يبحثون عن واحد من أولاد عمهم الكريم المنتشرين في هذه البقاع، إن عمكم -يا آل مستجاب- كما تعلمون تزوج من نساء عديدات، كان الفراق الذي أراده الله بينهم وبينه قدراً لا طاقة لأحد بمنعه أو مناقشته، إلا أن عمنا الكبير يعاني -كما تعلمون- من هذا الحلم الهاتف أن يذبح واحداً من أبنائه، إننا نلوذ بالله أن يشملنا برحمته وحكمته كما شمل غيرنا -وهم أصلابنا- حينما وقع أحدهم في نفس المأزق، وليس صعباً أن نجد من يعاوننا -بعد الله- في اجتياز التيه وصولاً إلى واحة الراحة، والحمد لله أولاً وأخيراً، ولنتوكل على الخالق الذي لا ينسى عبيده أبداً.

وكانت الفاتحة هي الإذن بالتحرك، وظلت الشمس تداور النجوم ساعية لإنارة الطريق طوال النهار حتى منتصف الليل، واندفعت الحملة (لم نقل القافلة أبداً) في صلابة تخترق الروابي والتلال، حتى أشرفت على الوادي، أه أيها الرابع، إنك مجهد لكن مشهد تلك الخضرة أثارت في جسدك النحيل قوى غامضة من اشتهاء قديم -هل تتذكر؟- كما أن نسيم الشجر والجداول

وأسراب الماعز يدفع الاشتعال في الكيان المتصلب (أسفل شجرة، وبعد الظهر بقليل، يمكن لي، مع أنثى مفرودة الجسد بين أحضاني، أن أصل بالمتعة إلى أعلى ذروتها)، رقرقة الماء متسرباً بين أدغال قصيرة تتراقص بين الشطآن وتعابث القصيدة والحكمة وأهازيج الليالي الساخنة، وظلت الجماعة تسعى بين تعاريج وانثناءات، والقرى والعزب والنجوع والكفور ترفع ساريات المتعة استقبالاً لمسلسلات التليفزيون، والمصاطب تداعت وانهارت وبدأت تندثر تاركة الشوارع والحارات للمقاعد الخفيفة التي يتسامر عليها أناس يبتسمون، فظلت الذاكرة تسعى كي تصل إلى موقع من مواقع المصاهرة القديمة، نعم، هناك، ووراء محطة القطار طريق يؤدى إلى ما بدأت الذاكرة تنتبه إليه، وكان الرابع قد مكن على ظهر جواده، يحاول أن يرى، ويحاول أن يتماسك، كان مرهقاً، عند ذاك بدأت ذاكرته تنشط، وعيونه تلمع، وجسده يصبح أكثر فروسية ، إنها (عزبة التحكيم) التي تنتمي إليها أولى زوجاته ،يتذكر أن اسمها فايزة أو فوزية أو فوّازة، وكانت عيونها -إنه لن ينسى- تطفح بالتألق أو التوهج، عزبة الحكيم التي منها فوزية لم تسمح لذهن الرابع بأن يتذكر اسم أبيها -في سماحة وهدوء وارتياح الصحراء- يحملون في أفئدتهم اسم الأب ممتزجاً -في فخر- باسم القبيلة، وهنا فإن الأمر-يا للعذاب- يختلف.

وقد استقبلهم عمدة (عزبة الحكيم) في احتفاء ريفي وكرم يشي بكثير من علامات الاستفهام، حاول الرابع أن يتذكر -وهو جالس في ديوان العمدة على مقعد وثير ذهبي المساند- إن كان هذا المبنى هو الذي جاءه من زمن بعيد ليطلب الاقتران بأولى زوجاته؟؟ ظلت عيونه تلمع في الصور الضخمة ذات الإطارات الضخمة -والمذهبة أيضاً- إنها تصنع مشهداً يثير الانتباه فوق جدران القاعة الواسعة، الذي يقف -وحده- بين أضلاع أضخم برواز وقد تشبَّثت أصابعه بالسيجارة عنواناً على الفخامة والهيلمان، وملامح الرجل تنم عن علاقة واضحة بالعمدة الذي لا يزال يرحب بالقوم، وقد انضم إليه السادة

ذوو البأس أو ذوو الشأن من عائلته، أو من القرية ذاتها، لقد ظل الرابع -رغم إرهاقه- يقارن بين ملامح الصورة المذهبة والعمدة الجالس بينهم يتسامر متظاهراً بالمرح الحائر.

آخر ليلة الاستقبال الكريم أفصح آل مستجاب -نصف إفصاح- عما يشغلهم، وقال العمدة أنه يأسف أنه لم يلتق بأحد من قبيلتهم من قبل، وطاف بعيونه بين أهله ليساعدوه كي يساعد الضيوف، وكان الاستفسار الأولى -المبدئي- عن اسم البلدة التي يسعون إليها بالتحديد، عزبة الحكيم، وتكلم واحد من أهلها، فقال ربما يكون في الأمر اختلاط، وواضح أننا لا نذكر أن واحدة -من أسرة مهما كانت تافهة أو وضيعة- وعذراً فنحن لا نعرف في قريتنا أسرة تافهة أو وضيعة -لا نذكر أن واحدة من هنا قد تزوجت هناك خلف الجبال، فقام الرابع- وفي إرهاق واضح -بالتنبيه (بأننا نعيش في الصحراء لا في الجبال)، أي أنهم ليسوا من أهل الجبال الذين يختلفون عنهم، ودون الدخول في لجاج الفرق بين أهل الصحراء وأهل الجبال فإن متحدثاً آخر- يعمل وسيطاً في بيع الأراضي: عقارات أو زراعة- أعلن أنه يعرف شخصياً عدداً كبيراً من العزب والنجوع يحمل اسم الحكيم في محافظة المنيا، بعضها تابع لمركز سمالوط وبعضها تابع لمراكز أخرى، كما أن ثمة عزبة تحمل اسم الحكيم تابعة لمدينة الأقصر -جنوب الوادي-، ولا ننسى أن أسماء مطابقة عديدة لمواقع في كفر الشيخ والغربية والدقهلية والمنوفية، وفي محافظة البحيرة عزبتان تحمل نفس الاسم، واحدة أضيف إليها لقب الغربية تتبع مركز أبو حمص تفريقاً لها عن واحدة أخرى في كفر الدوار، وظل الجالسون -جميعاً- مبهورين بقدرات هذا العارف بكل تلك البلاد، ولاسيما حين أنهى كلامه بقوله: أما عزبة الحكيم -بلدتنا التي نقيم فيها ونفخر بها- فإنها تابعة لمركز الواسطي محافظة بني سويف، وعذراً مرة أخرى: فإننا لم نسمع عن آل مستجاب من قبل.

وأثار هذا التوضيح، كثيراً من الغيوم في عقل القبيلة التي كانت تحتسي آخر قطرات الشاي، طوال حياتهم يجوبون كل هذه السهول دون أن يتوقفوا أمام التكوينات إلا إذا ارتبطت بواقعة ذات شأن، يذكرون -مثلاً- أن واحداً منهم اضطر أن يقتل منافساً له في واحدة من مباريات الفروسية، فقد خرج المنافس عن عرف التبارز إلى سخف التهاتر، وعندما تحولت المبارزة الممتعة إلى مهاترة جارحة: اعتلى جسد الخصم في غير ما تقضي به أعراف القوم، ذلك أن الانتصار يتحقق بالوصول إلى استشراف الانتصار دون إلقاء الخصم أرضاً، وسال الدم صراخاً عاتياً، ولولا حكمة حكماء القوم لكانت الكارثة أخطر، فانطبع الموقع في حكاياتهم عن الموقعة الدامية على الشاطئ البري لبحر يوسف، في مدخل الفيوم، ثم واقعة أخرى داهمت فيها فيالق فرسانهم -من مختلف القبائل- معبداً وثنياً نقشت على جدرانه رسوم فاضحة لأجهزة حساسة، كما أن قبيلة أخرى -ربما هي من آخر غرب الصحراء- داهمت بعض الكفار أثناء احتفالهم الزنيم بإلقاء عروسة حية في النهر الهادر تقرباً -أعوذ بالله- من رضاء النهر عليهم، على أن الذاكرة لا تحول دون الانتباه تلك الموقعة التي انتصروا فيها على جماعة تقيم للمقابر مشاهد أعلى من طوابق بيوتهم، والمثير للسخرية أن واحداً من ثاقبي النظر اعتلا جبلاً -ربما في أسوان- كي يرصد تحركات الأعداء، فأقام قبة صغيرة تحميه من نار الشمس، وبعد شهور سعى أهله للبحث عنه فاتضح لهم أنه قضى نحبه وحيداً في تلك القبة الصغيرة العالية، فقاموا بدفنه فيها، ثم لم يلبثوا أن أنشأوا دروباً ومطالع في التلال تؤدي إلى مقامه العالي، يثابرون في دأب للصعود إلى المقام طلباً لليمن والبركة والفأل الحسن، فلم يتوافق هذا الذي حدث مع اليقين الثابت الذي لا إله فيه إلا الله، ولا طريق -مهما علا- يؤدي إلى الله -جل وعلا- إلا الطريق

الأسمى المباشر، فقامت قبيلة -لا ندري لها اسماً بالتحديد -بمداهمة هذا الجبل وطرقه ودروبه ردعاً لهؤلاء الضالين، وذاكرتهم تتوقف عند هذا الحد- حيث لا يزال المقام لهذا -الناضورجي- مباركاً وميموناً حتى اليوم.

لعل الأمر يمكن أن يصبح أكثر حيرة الآن، ذلك أن حملة -فرسان آل مستجاب تفشي أمرها، وشاع بين ربوع الوادي في كل القرى والنجوع والعزب والزرابي أن جماعة قادمة من بعيد تسعى بحثاً عن زوجات واحد منهم، حينذاك انطلقت الآراء والرؤى والتفسيرات تهوّم حول السبب في البحث عن الأصهار، لماذا يبحث واحد- قادم من بعيد -عن زوجة قديمة، والتفسير الذي انتشر بين أغصان الشجر وكوانين الطبيخ وسعف النخيل أن الأمر يتعلق بميراث مكون من ثروة طائلة وعقارات عالية وأفدنة واسعة وصناديق من ذهب وفضة ولؤلؤ وزبرجد، انتشر التفسير- من كل عالم ببواطن الأمور -حتى أن الآذان أرهفت متحسسة أبواب مغارة علي بابا، واندفعت الخيالات تستحضر المعجزة الراسخة لهذا المارد الذي تأتيه فرصة الانطلاق من الزجاجة المغلقة منذ الأبد، شبيك لبيك.. المارد بين يديك ليحقق أي أمنيات مهما تضخمت وتلألأت وثار حولها دخان القوارير والجماجم، في الوقت الذي كان قوم آل مستجاب قد تحركوا في الوادي سعياً لتحقيق الأمنية الخالدة الضاغطة على رابعهم: اذبح ابنك...

كان الرابع -لظروف يمكن استنتاجها دون توضيح كبير- قد أرهق، أصابه الكلل والإعياء فلم يعد قادراً على الاستواء فوق جواده الأثير، وفي اليوم الرابع أو التاسع مال جسده فوق الحصان وانكمش متشبثاً بالعنان، فإذا أضفت لهذا الانكماش تلك العينين اللامعتين اللتين

تومضان من جسد أصابه الذبول الأسمر، لأصبح المشهد غير مريح، ذلك أن قواعد الفروسية ترى في هذا التشبث بظهر الحصان ضعفاً لا يليق، كما أن الأذنين شديدتي الحساسية والإنصات الدقيق أصابهما نوع من الاختناق جعلهما متوائمتين مع هذا التشبث المشار إليه، إن التقوس الذي ارتفق ظهر الرابع وجعله قوساً مشدوداً يناقض الفروسية من جميع الوجوه، ثم إنه يسعى بحثاً عن زوجة -أي زوجة من زوجاته- مما يتناقض -أيضاً- مع مشهده المتهالك فوق الجواد، فإن لم يثر الدهشة فسوف يثير السخرية، وآل مستجاب قوم جبلوا على عدم التمازح، إنهم يمزحون ويسخرون ويروون الأشعار الصارخة ضد الآخرين، لكنهم -أبناء السيف المسلول والشجاعة المسنونة- يبتسمون أو يضحكون على ما يجري حولهم دون ما يجري معهم، وسوف يكون الأمر أكثر وضوحاً حينما نكشف لك عن كارثة تلك المرأة التي ضل جملها طريقه فوقع تحت طائلة سيف قبيلة أخرى مما أثمر حرباً ظلت تدمر الخيام وتقطع الرقاب وتحاصر الأطفال والماعز والكلاب والنساء أربعين سنة، ولو حدث ذلك لقوم آخرين لظلوا يروون عنهم من الحكايات واللواذع وأشعار التعليقات ما يزيد كتب المدارس تورماً، إنما آل مستجاب جعلوا وقائعها جزءاً من تاريخهم الفاره الفاخر العتيد، فما الذي يمكن أن يفعلوه الآن لهذا الرابع الذي انحنى منكمشاً فوق جواده معلناً عن شيخوخة واضحة التضاريس في العيون وعظام الوجه وأخاديد السحنة القديمة؟

لابد من الاعتراف بأن الجو الحار المشبع بالرطوبة الخضراء ظل يقاوم حركة آل مستجاب الذين تعودوا أن يخترقوا -بسهولة- أي فلوات تتمدد تحت صفاء اللون الأصفر الناشف الناعم، بعضهم -دون أن يعلن ذلك- كان يشكو من الاختناق أو من انعكاس الضوء فوق

انكسارات الماء في الوادي، إلا أن الرابع استمر ضاغطاً على أنفاسهم أكثر من ثقل الهواء ورقرقة الماء، إذ بعد أيام -مفعمة بالضيافة دون الوصول إلى أثر لأي زوجة قديمة- أي بعد مرحلة الانكماش الضاغطة على ظهر الجواد، بدأ الرابع يعاني من حالة لا يحب آل مستجاب أن ينتبهوا إليها، السقوط، إن سقوط الفارس من فوق الفرس لا يقل إهانة عن عملية قتل الفارس ذاته، وما بالك والسقوط يتم بشكل يثير المرح الساخر أن يلتف الجسد المهيأ للسقوط متشبثاً بالسرج ليصبح الفارس والسرج كتلة ضاحكة على جانب الفرس -الذي يستمتع بما حدث فيزيد من سرعته- كتلة جسد الرابع المتكورة مع انزلاق السرج جانباً جعلت القوم يتوقفون، ويعيدون النظر في الموقف كله، ثمة أطفال وصبيان وبعض الرجال والنساء أثارهم المشهد فكادوا يصفقون مرحاً.

والحلّ -علاجاً أو مفاداة لذلك- أن يصحب أحدهم الرابع معه على فرسه -أي يجعله أمامه أو خلفه- حفاظاً عليه، فأي فروسية تلك؟ ثم كان الاقتراح الثاني أن يسير الرابع -هادئاً- أمام القوم، فأي مشهد يمكن أن يكون ذلك، ثم كان الأكثر حسماً للموقف كله أن الرابع -دون اهتمام بما يجول في خاطر الفرسان- سقط من فوق الحصان والسرج لا يزال رافضاً السقوط معه على الأرض، فاكتفى الرابع بأن صحب معه الركاب- أي ذلك الذي يستند إليه بأقدامه في الركوب.

والضرورات تبيح المحظورات، أن.... لكن الفرسان توقفوا كي يفكروا جيداً قبل أن يفعلوها..

من الواجب الآن أن ندرك أن السحب ظلت تبتسم دون أن تتيح للشمس فرصة الظهور، وأن الذين شربوا الدم عطشاً أو أكلوا لحم الموتى جوعاً -ليسوا من آل مستجاب أبداً، ولذا فقد جاء الاقتراح- متعثراً في هضاب المجد -يحاول الوصول إلى العقول، لماذا لا يصنعون للرابع محفه يمكن له أن يستريح عليها، ويصبح سهلاً عليهم- باستخدام الخيول أو بدون استخدامها -أن يحملوها، فاضطرب المجد القديم وبدأ يبرز ألف اعتراض، مع أن كثيرين- في بلاد الله حملوا كبارهم وشيوخهم ورؤساءهم وزعماءهم على المحفات: موتى أو أحياء، الضرورة تبيح هذا المحظور، ولم يضطرب الأمر طويلاً فقد استقر -دون اقتناع كامل- في اللغة التي بدأت ترتب حروف الحصول على محفة -بشرط ألا تكون قد استخدمت من قبل، أي تكون جديدة، وإن كان لابد من استخدام محفة قديمة فيجب التأكد أنها لم تستعمل في حمل جسد ميت -أعوذ بالله- احمنا يا رحمن، عندئذ- وبسرعة مذهلة ظهرت المحفات، كل مدخل قرية سوف تجد محفتين أو ثلاثاً، وسوف يروقك أن ترى ابتسامات الناس بالغة العذوبة، إنهم لا يأخذون ثمنا للمحفات، كما أنهم يرفضون أن تكون لأية محفة نفس حروف المحفة، والتي تنزاح خلفها الحياة قلقاً، أو شؤماً، أو انكساراً، المحفة للموتى حتى ولو لم يسبق لها حمل الموتى، وسيظل معناها مرتبطاً بالحتف والدخول في عالم الاحتفاء النهائي، إنه الرابع من آل مستجاب، الطيب الذكي اللماح الصادق، والجاثم على جواده مستكيناً أو متربصاً، وعندما يستوي بعيداً عن مكمن فروسيته وجوده وخياله ومهارته: فلابد أن يكون له عرش لا محفة.

فتسابقت السليقة القديمة الراسخة تطرد لفظ المحفة عن المشهد كله، وكانت كلمة (العرش) محفوفة بكل ما يحب الناس أن يحفوها

به، ومزخرفة بأنواع من الزخارف والأنوار -التي هي قبس من جلال العرش العظيم- وأول عرش -وكأنه جاء مصادفة لهم- كان من قرية تقع على بحر يوسف في المنطقة التي يكاد يفترق فيها عن الوادي الأخضر متسللاً -أو مقتحماً- تلال الرمل الغربي المنبسط، وكان العرش مزهواً بزهور منسوجة بخيوط الحرير اللامع في أركان ذلك المقعد الكبير، وحول العرش ظلت المزامير تتناغم منضبطة على إيقاعات الطبول، كان اللقاء حميماً، أمنيات الحب والوداد وحسن الاستقبال تزهو في حركات العصى والسيوف وطلقات الرصاص، وتتلاعب -جزلة- في خطوط الملابس الملونة، جولة أو جولتان بعد عناق التعارف، وظلت الفكرة الأثيرة جاثمة في وجدان المحتفلين، إن الرابع يبحث عن ابن له ليسلمه ثروته الطائلة، والتي -فيما يحكى ذوو الدراية والإدراك- أنها صناديق من لؤلؤ وزبرجد وذهب وفضة، وقد قدموا العرش المزدهر إعراباً عن إخلاصهم المعروف، والذي تناقلته الحكايات والمواويل وروايات السينما وتسجيلات الفيديو، إن واحداً من هذه القرى -لابد- أن يكون ابناً للرابع.

وبعد الإرهاق الجليل بدأت الأيدي المدربة في النقل الجليل لجسد الرابع من فوق الجواد إلى العرش الجليل، بعدها -وحين ارتفع العرش فوق المسطح الخشبي- لم أقل المحفة، انطلقت من جديد أصوات روعة الاحتفاء، وعادت السحب تتراقص مزهوة بين الطيور الفرحانة، واخترق الرصاص قلوب الشياطين والرافضين والكارهين والخارجين على النشوة القصوى، إنه الرابع من آل مستجاب، والذي ما كاد يستوي على عرشه حتى كاد الانفعال العظيم يسمو به إلى مكمن البرق ذى الوميض الأخاذ، وحتى لا يلتبس الأمر على أصحاب النوايا غير المريحة، فإننا نود تصغير العرش إلى عُريش، اذبح ابنك، وعادت الرؤيا

-في عز اليقظة- تطالب بحقها في الظهور، وكل شيء بيد الله العلى العظيم، صاحب العرش الأسمى، القادر على أن يسمو على كل عرش، فاهتز الرابع في عرشه المحمول على المسطح الخشبي، هذا العريش الذي ارتفع فوق مسطحه الأمين لتتحرك أربعة من الجياد دون أن يأمرها أحد، تحركت هذه الجياد لتحمل المسطح الثابت الأمين وفوقه العُريش الذي يكون فيه الرابع، وتظل الطبول تدق والأصوات تبتهل والأكف تصفق، كانت لحظات ساحرة.

ظلت عيون الرابع تجول في الجماهير، تبحث في وجوهها وبين ملابسها وخلال هتافاتها وابتهالاتها عن واحد من أبنائه، وتحاول أن تتذكر -أو تستخرج من بين كل التكوينات التي تحف بالمكان- أثراً من ذكرياته المتوالية عن زوجاته المتواليات، كان الشجن يمور في كيانه فيكاد الدمع يمتزج بالحلم الضاغط: اذبح ابنك، ويتسلق الحشد -وراء العريش المزهو- روابى النخيل وشطئان الترع ومراسي المراكب وأوكار القوارب ومداخل القناطر وفتحات الأهوسة (جمع هويس) وجابيات الشواديف وأعماق السواقي وانحناءات القنوات، وظهرت الغوازي ذوات الأجساد الممشوقة تحيى الموكب العظيم بأجمل الرقصات، وجاء الغجر والحلب والنَّوَر يخترقون صفوف الفلاحين وعمال الأرض ليشاركوا في البهجة الكبرى، واهتزت هوادج الجمال متألقة بفتيات الوادي الراغبات في الفرجة من وراء الأستار، حتى الضفادع بدأت تمد أقدامها من البرك والمستنقعات متراقصة على إيقاع رقصات الخيول، لا يحول دون ذلك عتمة ليل أو إرهاق الجو الحار أو هبوب ريح الخماسين، وبين حين وآخر تشرئب رأس الرابع من مكمنه في العُريش تحاول أن تتبين الوجوه والعيون واستدارات الأذن وكبرياء الأنوف، واضطرت النجوم أن تعيد ترتيب تكويناتها حيث تراجع سواق

العصى (النجم القطبي بلغة العلماء) نحو الغرب ليسمح للثريا أن تأخذ موقعها الدائم في التألق ليلاً أو نهاراً، وصممت نجمة الصباح أن تتقافز في السماء دون أن ترتبط بالصباح.

إنه الود المتسع في كل القلوب، هو ذاته الود الذي ظل قادراً على احتواء كل الأقطاب المباركين القادمين من آخر غرب الدنيا، بيدهم العلم والتفسير والفتوى والعقل الواسع، يعبرون هذه البلاد في طريقهم المرهق إلى حيث يخترقون الشرق وصولاً إلى البيت الحرام هناك في مكة المكرمة، شهور تصل -أحياناً- إلى سنوات حتى يمثلوا بين يدي الله العلى العزيز تأديةً لفريضته الواجبة، وما يكادون يمتلئون بعبق الإيمان -تتويجاً للأحاسيس النظيفة الراقية- حتى يعودوا سالكين الطريق -نفس الطريق- إلى آخر مدى في الغرب الغامض هناك آخر الصحراء الكبرى، يجيئون من الأندلس أو مراكش أو وهران أو تونس، لكنهم حين يعودون فإنهم لا يستطيعون مغادرة هذا الوادي، يلبثون فيه -أول الأمر- كي يستريحوا، ثم يلبثون فيه وقتا آخر كي ينعموا أكثر بهذا الفضل الكريم في الوفادة والاستقبال والجدل والمحاورة، ثم لا يلبثون أن يكتشفوا أن هذا الوادي هو النهاية المرجوة التي هي المدخل الأساسي للفردوس الرحيب، إن عدد مقامات أولياء الله المنتشرة في هذا الوادي تقديساً لأبدان علماء قادمين من الآفاق الممتدة غرباً، أكثر عدداً -وشهرة- ورسوخاً من أولياء الله الذين هم من أهل الوادي ذاته، وهي مسألة يعرف آل مستجاب أنها لا تحدث صدفة، وأن وراءها طاقة من نور الله، فتحة عليا يتنسم منها العلماء مالا يتنسمونه في بلادهم البعيدة، هي هذه التكوينات الخاصة التي ليس لواحد منا أن يخضعها للتحليل والتفتيت والبحث عما وراءها، ربما تكون راجعة لهذه الرغبة العارمة في أهل هذا الوادي كي يخترقوا

كل النخيل والأشجار والآبار وصوامع الغلال وأثداء المرضعات ومهود (جمع مهد) الولدان -فيقيموا الهياكل والمعابد والأهرامات والمقابر بما لم تستطع جماعة- في أي موقع آخر -أن تفعله، ولذا فقد كان من الصعب أن يتوقفوا عن يقينهم الخاص حتى ولو اشتبك أو تصادم مع اليقين العام، إن الموكب الذي سار في تهليل وراء الرابع من آل مستجاب حاول مراراً أن يرفع المرايات والبيارق، وأن يدخل المستجاب في دائرة إدراكهم- الذي دائماً لا يحبون أن يتحدثوا عنه -ربما لأنهم يدركون دون قدرة على الوصول إلى التعبير الصريح الصارخ المناسب والمتوافق مع كل ما يدور أو ما يجري، فلتكن ثروة مذهلة وراء بحث آل مستجاب عن واحدة من زوجاته، ولتكن- أمنية مذهلة -تتسربل أحلامهم القديمة في العثور على الكنوز خبطاً على مغارات علي بابا أو فتحاً لقوارير المارد الذي يحقق الأمنيات في غمضة عين، لكن الأسمى من كل ذلك هو أن الرابع بينهم، يبحث عن جذوة مشتعلة انبثقت من جوفه- بالتأكيد -لحظة النشوة الكبرى، وحتى حين داهم الحلم الرابع مرات- وهو في العُريش -متجلياً بآيات التواصل والامتزاج- لم يفصح عن هذا الأمر الدامي: اذبح ابنك، والذي كلما داهمه اهتز جسده واضطرب وجدانه وكاد يتمزق شرائح على طين الوادي.

وعندما رفع الرابع يده إلى أعلى: توقف الموكب، كانت ذراعه الممتدة إلى أعلى تعبر عما أحسوه دون أن يفهموه، وهرع إليه أفراد من أهله، تسلقوا بوادر العريش وأنصتوا إلى صوته العجوز الحكيم الخافت: أريد سكينا، نعم: وأشار بأطراف أصابعه إلى أعلى، إنها إشارة الذبح، كانت أصابعه الشامخة تتصادم وتتفرق، أريد سكيناً، هل يصلح السيف؟؟، السيف أداة نزال وحرب لا يصح أن يستخدم في الذبح، أريد سكينا....

لم يخطر ببال واحد من عشيرته أن يحمل سكيناً، وما كادت الأفواه تهمس بالطلب حتى خرجت عشرات السكاكين من القرى والعزب والنجوع والكفور، سكين واحدة فقط، وتهاوت أمنيات الراغبين في المشاركة لتتناول يد الرابع سكيناً -أو سكينة- كأنها صُنعت لهذا اليوم العظيم، مقبضها أسود كالح لا أثر فيه من فخامة الذهب والفضة، والنصل عريض بالغ الصدأ يمتص النور دون أن يعكس أي التماع، سكينة تبدأ عند المقبض عريضة وتنساب عند السن في شكل يكاد يقترب من شكل الخناجر ذات الفخامة المعهودة، وكأن هذه السكينة قد التقطت من فوق فخذ كانون أو من تحت كومة بصل أو من بين شرائح طماطم، فانزعج كثيرون لاختيار الرابع مثل هذه السكينة، وتركوها له -صاغرين- مادام هو قد رضى بها.

وتشبثت يد الرابع بالسكين، كان عرشه (لقد تعبت من استخدام عُريش) قد عاد للتحرك، وبدأت الجماهير تلملم نفسها لتسير -في موكبها- خلفه، على الخيول أو عربات الجر أو سيراً على الأقدام، أو فوق الحمير التي ظلت -كعادتها- تسير في الخلف، لكن يد الرابع المستكين صغيراً عجوزاً لامع العيون ارتفعت أكثر بالسكين، فبدا الموكب وكأنه قطيع نمل بين غابات النجيل وقد قادته قرون استشعار نملة ضخمة كبرى، ذلك أن الرابع أحس بأن هذه المنطقة يعرفها جيداً، وأن الاختلاط والاضطراب الذي حال دون أن يجد واحدة من زوجاته في المساحات التي اخترقوها -يتراجع الآن أمام هذا الإحساس الغامر بأن هذه المنطقة الآن تستعد للتجاوب معه، إن حركة السكين في اليد المشرعة فوق العرش ترتجف وتنتفض الآن، هذا البربخ القديم الذي تخرج منه ترعة تكاد تكون ضحلة، تخترق دماغه القديمة لتستثير

الذكريات المنشودة، فإذا أضفت إلى ذلك هذا الطريق المتعرج الذي ينساب -كالأقوال المأثورة وسط الصياغات اللغوية الإنشائية- أقصد وسط مربعات النجيل المتداخلة، تلك التي تجتذب القمر وتداعبه حتى يسكن بين جوانحها، طالبة من الشمس -في كل صباح- أن تنزوي بعيداً، ثم -هناك في الأفق- هذه المئذنة الضخمة القديمة التي ترسم في أبعاد متوالية إشارات الهدوء الساكن بين مشاهد المدافن، هذه التي تستظل بجدران دير قديم يهب -بين الحين والحين- مستيقظاً على دقات النواقيس الطيبة.

إنه يعرفها، هنا -ولا تزال ذراعه مشرعة بالسكين- كانت العروس الأخيرة الفقيرة اليتيمة، يعولها عمها الفلاح الذي يعمل آخر غرب الوادي في عزبة واحد من الأثرياء، لم تكن جميلة -بالمفهوم الشائع للجمال الشكلي- كانت ذات ابتسامة وبشاشة والتماعة في العيون، كما أنها -الملعونة بنت الملعون- يمكنها أن تضحك في صبيانية فتستثير في الرابع موجه من الصخب الصغير، وبعد أن انفض فرح الزفاف، وسكنت العروس إلى صدر فارسها ليلة أو ثلاث أو خمس، جاء الخبر الذي ظلت القلوب متوجسة أن يحدث..

هربت العروس... لتنفتح فوهة النار التي لم تخمد أبداً، عريسها، فارسها الجميل الكريم، المتأنق الشجاع، والذي ذابت بين أحضانه -كما ذاب غيرها- في حياء الالتهاب وذروة المتعة....

واخترقت هذه العروس -مهما كانت حكايتها قد تراجعت للخلف أحقاباً طويلة- ذاكرة الرابع، تلك المشرعة يدها بالسكين، لتشير هذه العروس الملعونة في استسلام هامس واضح وشديد الجلاء: إن رائحة

زوجي هذا لا تطاق، ظلت أحضانه -يا بنت إبليس- في هاتين الليتين تفح بالعفونة، عفن كاسح مروع فاتك، اقتلوني الآن، اقتلوني الآن، لم تكن تصرخ، كانت لا تزال تهمس، روحي: ربنا يستر عليك، واندفعت تفاصيل الموقف كله تربط الحبل السري برقبة الرابع، وتخلع عن الجمجمة عظامها لتلقى بها بطيخة تالفة بين عروش البطيخ النامي، وتجذب كل لجامات الخيول لتصبح أحزمة لتعريش أقفاص الكتاكيت، وتجعل اليد المشرعة بالسكين تسعى لتدمير أعمدة القصائد والهياكل والمذابح...

هنا تكمن هذه التي أصبحت إجابة على كل الأسئلة المستترة، وجهها الأسمر الرقيق الذي يفح بمتعة علامات التعجب والاستغراق، هنا، بعد هذا الطريق مباشرة.

وعندما استشرى هذا الشرر في ذاكرة الرابع كان أهله قد التقطوا الإشارة إنهم يتذكرون الواقعة لكنهم لا يحبون الركون إليها منفصلة عن كل الوقائع، إنهم جاءوا كي يكونوا جزءاً من المشهد الأثير للحلم المداهم لواحد من أعزائهم: اذبح ابنك، ما دار في ذهن واحد منهم فكرة الانتقام، وإنني -كاتب هذا العمل- لم يطف في باله أبداً أن يحرك هذه الجماعة لتنتقم، إنما أنا -وأنا واحد منهم- ظلت مشدوداً للحلم الآمر الحاسم: اذبح ابنك، وقد صحبتهم طويلاً خلال أحقاب من الكتب والبيانات والحكايات وتلال من الأخلاق الكريمة دون أن أقع في المأزق الذي يحتمه الانتقام، والرابع نفسه -ذاك المشرعة يده بالسكين وهو كامن في عرشه، وخلفه أهلي من آل مستجاب، لم يطرأ في باله- على الأقل قبل الآن -أن يسعى للانتقام، إنه مسكون بالحلم الأثير الذي لا مندوحة من البحث عن واحدة من زوجاته كي نعلته

واضحاً صريحاً: اذبح ابنك، وغير ذلك لا يصح ولا يجوز، ولا سيما وأن عدداً من أعمال الانتقام يمكنها أن تفسد علينا جميعاً متعة الرضوخ للحلم، والسعي لتنفيذه الحاسم، فقد علمنا أن جماعة تأمروا على صديق لهم وأودوا به إلى السجن، وما كاد يجد الفرصة للهروب حتى تخفى تحت اسم (كريستو) أو شيء من هذا القبيل، فيصبح حكاية في الكتب والسينما، ثم هذا الذي كان صبياً- أو طفلاً -متشرداً، التقطه صاحب ضيعة في بلاد الفرنجة ليعيش مع أسرته، لكنه يواجه البلاء بعد رحيل سيده، فيرحل إلى بعيد ويعود بعد عشرين عاماً كي ينتقم من أبناء سيده- ومن بينهم حبيبته الأثيرة. من الممكن أن نشير إلى أنواع من وسائل الانتقام المؤلفة والتي وجدت طريقها إلى أذهانكم عبر أنواع من الصياغة في السرد قصة أو مسرح. ربما كانت آخرها حكاية السيدة العجوز التي عادت في زيارة إلى موطن استلابها عذريتها تحت سطوة قصة حب مع بقال ألماني، وحين أرادت أن ينتهي مصيرها إليه بالزواج، رفض، ولما لجأت إلى القضاء جاء برفقته ثلاثة أو أربعة أقروا بأنهم ناموا معها في نفس الوقت الذي انتهى بها إلى الحمل أو الحبل أو انتفاخ البطن، كل ذلك -بالتفصيل أو التعميم- نعرفه ولا نميل إلى السكون إليه، إنه الحزن المحترق كمداً وكراهية وتآمراً، مستجاب الرابع ليس من أهل ذلك.

وقبل أن أوضح لكم ما أشرت -مخلصاً- إليه استيقظ النجع البعيد على ضجيج موكبنا المنير في ذاك الصباح، ولم يكن صعباً أن يتعرف أهل النجع على آل مستجاب بسهولة، بل أن عـدداً من عيالهم -ويا للمسرة- يحمل اسم مستجاب، هذا الذي ظل ذائباً أو متلاشياً في كل أنحاء الوادي، وظل رجال النجع يبتسمون -أو يهللون ترحيباً، مما جعل الموكب يتناثر- في سعادة -عند مدخل القرية، بل وترجل

كثيرون عن جيادهم ليتاح لهم احتضان مستقبليهم، مما ساعد على نوع من الارتياح الجميل الذي ضاع خلال الرحلة المرهقة بين عشرات من القرى، ليتحرك رجال الموكب على أقدامهم، تحت سطوة إحساس جميل بأنهم في بيوتهم، والرابع من آل مستجاب هو الذي ظل -وحيداً- في عرشه. يبتسم سعيداً ويومئ لكل من يقترب منه بالرضا والحب الودود. وفي البيت الكبير تحلق آل مستجاب في القاعة الكبرى -نفس القاعة الكبرى- حول الرابع، حملوه مع عرشه دون أن تنخفض يده بالسكين المشرعة، وكان مشهد السكين يثير الأسئلة، ثم لا يلبث أن يثير المرح منخفض النغمات الممزوج بالهمس، وعندما وضعوا العرش في المكان اللائق أحس هؤلاء الفرسان بضيق المكان لكنهم ظلوا يحتسون الشاي والقهوة ويتضاحكون -في كرم- مع مستقبليهم.

وكانت التقاليد قد جرت ألا يكشف ضيف عن مطالبه إلا بعد مرور الأيام الثلاثة للضيافة، لكن السكين المشرعة صممت أن تقطع سياق تقاليد الضيافة، كان الحلم يلمع في نصل السكين دون اعتبار لقدرات كل الفرسان على الصبر، فبعد ساعات قليلة كشفت الجماعة عن مطلبها: زوجة الرابع تلك التي.....

وارتكزت جميع العيون على الرابع الكامن -في وضوح داخل عرشه المتألق، أحس الجميع بأن الرابع الذي يقع ظل السكين المشرعة على غضون وجهه الملتمع: يفح بالعفونة، إشعاع شائك بالعفونة ينبعث واخزاً بالغ الضراوة في الأنوف، إلا أن فرسان الموكب انهمكوا في إشعال سجائرهم وإزجاء تحياتهم وحبهم العميق، إننا نريد -مرة أخرى- زوجة الرابع، تلك التي لا تزال زوجته حتى الآن.

ومع أن استكمال الجملة أثار دهشة صامتة، إلا أن الأقاويل التي

سبقت الموكب حول الثروة المؤكدة، تلك التي يسعى الرابع كي تصل إلى من يستحقها من ذريته، حالت دون وقوع الناس في مجارى الصمت، وأثارت في النفوس رغبة دقيقة- وشائكة- في الوصول إلى آخر الإجابات المأمولة، مع أن السكينة- في هذا الوقت بالذات- كانت تتمايل متراقصة حول الحلم الآمر: لقد جاء الوقت المناسب: اذبح ابنك.

لا نعرف كم مضى على القوم: الفرسان وأصحاب الضيافة- من أحقاب في جدل وأسئلة ونقاش يبدو مخلصاً مرحاً، حينما بدأت عيون الرابع تتلصص متسللة إلى ملامح الجالسين أو الداخلين والخارجين، يكاد يقفز من عرشه كي يتشبث بواحد أو اثنين أو خمسة ليعلن أن أياً منهم هو ابنه، كل ذلك انقطع فجأة حينما اخترقت المجلس امرأة، طويلة عريضة، غطت جزءاً من أسفل وجهها بحرامها الصوف، هذا الحرام الذي انسدل ليغطي امتدادها الجميل إلى أسفل، السلام عليكم، كانت عيونها الملتمعة تطرف شجاعة وحياء، وخطوط دقيقة- مثل الغضون- تتهادى فوق سحنتها لتصبح عيونها أكثر إشعاعاً، وقبل أن تمتد يدها لأحد بالتحية أو المصافحة، استقامت خطوتها في هدوء إلى العرش، وإلى زوجها، إلى مستجاب الرابع، لتتحرك يدها نحوه تطلب المصافحة.

كادت أنفاس القوم- حينئذ- أن تتمزق، ذلك أن اليد المشرعة بالسكين استكانت وهبطت لتتحرك في حبور حزين، والتقّت الكفان، واندفعت الزغاريد من كل أركان البيت أو النجع، لتشتعل الأفئدة بالازدهار الجميل، هذا الذي أحال المكان إلى تفاعل عميق وبالغ التواصل، ذلك أن المرأة- حين خرجت بعد أن اعتنقت عيونها -مرحبة- كل الجالسين، بدأت تقاليد الضيافة، والتي ظل الرابع خلالها في عرشه

بينهم، يمرح مشيراً برأسه أو بذراعه اليسرى، ذلك أن ذراعه اليمنى عادت لترفع السكين من جديد.. مع أن الجميع ظلوا يستطلعون أيا من الداخلين علّ واحداً منهم يكون ابناً لمستجاب الرابع أو حفيداً له، لقد كانت للمسألة- خلال الكلام وبين ثنايا المسامرة- جوها اللطيف، وهو ما كان مناسباً أن يرى الرابع أي واحد من نسله، أيهم، في الحقل أو في الورشة أو في عملية حفر باطن الترعة أو في المدرسة، وما كاد أحدهم يدخل من الباب حتى عرفه الرابع بإحساس دافق لا شك فيه بالمرة، كان الرجل طويلاً عريضاً- عليك أن تتذكر أمه- ذا شارب كث وعيون لامعة، بمجرد أن ألقى السلام تحرك مباشرة إلى عرش أبيه فانحنى وقبله مرات، كاد الاثنان يبكيان..

واندفعت إثر ذلك جماعة من رجال أو شباب، أو عيال، فازداد المرح والهرج وإلقاء الملاحظات والنوادر، وبعد أن جلس الأكبر قريباً من عرش أبيه، جلس الباقون- أو وقفوا- بعيداً هناك..

وتكلم واحد من آل مستجاب، إن الأمر خطير، ذلك أن الرابع، وهو عمنا قبل أن يكون والد أحد منكم، جاءته الرؤيا الحاسمة التي لا فكاك منها: أن يقتل ابنته، نعم أن يذبح ابنه- ونظر الجميع إلى ابنه المارد الجالس قريباً من أبيه يمعن فيه- أن يذبح ابنه وإلاَّ وقع فيما لا نحب أن يقع فيه، لقد هددته الرؤيا بأنه إن لم ينفذ الأمر فسوف تضيق عليه مخارجه، أي كل فتحات جسده في أي موقع من الجسد بما فيه الرأس.

حينئذ وقف الابن محتجاً لكن كبير آل مستجاب استأذنه أن يستكمل كلامه، وأن يراعي النتائج قبل يرفض المقدمات، ذلك أن الأمر لا يتعلق بالحق في الميراث الذي لا أول ولا آخر له، إنما الأمر

تعلق بحياة هذا الرجل الكريم الذي لم يفعل شيئاً حتى يقع تحت سطوة العقاب، ونحن نعلم أن الأمر يحتاج إلى إدراك أوسع، وبسبب تجارب قديمة لأسلاف لنا قد يغيبون عن ذاكرتكم هنا، فإننا قمنا بالصلاة إلى الله، واستسمحناه أن يرأف بنا، وبنسلنا في أي مكان يكون، حينئذ- وبإلهام من الله عز وجل- سوف نلجأ إلى نفس ما كان حلاً لحلم الأسلاف، كبش أو خروف أو حتى جدي أو حمل، وسوف نعده كي يكون الفداء المأمول، ولن يحدث ذلك- بالقطع- دون الدخول الجاد في تنفيذ الحلم: نعم: اذبح ابنك، ونظر الجميع إلى الرابع الذي ارتفعت كفه متشبثة إلى أعلى بالسكين ذات النصل الصدئ الحاد، فإن حالت ظروف دون ذلك، فإن مسألة التوريث سوف تتوقف قطعاً، ولن نطمئن بعد ذلك إلى أي نوع من السلام أو الوئام.

وتلاشى العناد الرافض من رجال النجع تحت وجاهة ومنطق ما يرونه من إخلاص، ثم إنهم- دائماً- قريبون من الله، لم يتخلوا أبداً عن إرضائه صوماً وزكاة وحجّاً وصدقة وصلاة، وبالتأكيد فإن الله عز وجل لن يتخلى عنهم...

غير أن الموقف اضطرب بسرعة فائقة أمام صراخ هذا الشاب الوغد الذي اخترق الجلسة دون حياء صارخاً: كيف تسمحون لأنفسكم -مهما كانت الثروة القادمة- أن تقعوا بين هذه الفكاك المفترسة الناعمة، تذبحون من؟ أبي- هذا الجالس مهذباً ممتثلاً- وقد امتلأت أمعاؤه بأعواد القصب وقرون الفول وحبوب السمسم والقمح وعجوة البلح، والذي يخفي كفوفه عن الناس كي لا ترى أثر الشراشر والفؤوس زرعاً وحصداً وتقليباً في بوص الذرة وزعازيع ذيل القط ولدغات كلاب

السنط وتشويناً لأشواك الحراز وسل النخل، أبي هذا الذي نام شهوراً مريضاً بعد أن داهمته بقرة ظل يرعاها حتى استشرفت الولادة، أم أخوتي الذين فتحوا بطون الترع ورفعوا الروث وتراب الفرن وسقطوا من فوق ظهور الحمير إعياء، .....

ظل الناس ينظرون إلى هذا الولد المشاغب المشاكس الذي لم يكن ثمة ما يدعو إلى دخوله المكان، لكنه اندفع- وكأنه يقف على خشبة مسرح مما نراه في التليفزيون- ليصرخ- في صوت ملئ بالشجن: -أو أنكم تريدون أن تذبحوا أخي الأكبر الموظف هناك في مدينة أسوان يرعى أسرته التي تخرج منها متخصص العلوم، وهو في السويد أو النرويج الآن؟ أم أنكم تريدون أن تذبحوا أخي الذي يعمل في السلك الدبلوماسي، فتقضون عليه قبل أن يصبح سفيراً، أو الأكثر مناسبة للذبح هو أنا الذي قضيت أكثر من أربعين شهراً معتقلاً دون أن أقدم لأي تحقيق أو محاكمة، أو الأفضل من كل ذلك- يا سادة- أن تذبحوا جدتنا، تلك التي عرفت أنها جاءت لتستقبلكم وتحييكم دون أن تعرف أهدافكم، إنها جدتي التي رفعت صوتها ضدك- يا جدي العزيز- بأنك الفارس الشجاع ذو الرائحة التي لا تطاق...

حينئذ اندفعت يد شرسة لتصك الوجه الملعون لهذا الولد الطائش، كانت يد أبيه الذي وقف الجميع ليحولوا بينه وبين الفتك بابنه.

وقد مرت فترة صمت مرهقة، بعدها عاد كبير آل مستجاب ليمسك بالموضوع من جديد، فأعلن إنه هو- وأشار إلى نفسه- الذي قال لأمهم أن الله سوف يسترها دنيا وآخرة حينما واجهت الرابع بما لا يصح، وأنه حليم ودود يحب الحلم والصبر وطول البال، وأنه يثق فيهم وفي

قدرتهم على استيعاب الكارثة التي يعيشها الرابع، ويثق- قبل كل ذلك- في الله جل وعلا، والذي أنقذ كثيراً من أحبائه في كوارث أخطر كثيراً، كوارث لم يكن لها نهاية محتملة على أي وجه، ودون أن أذكركم كثيراً فلن يغيب عنكم هذا الذي سار بين النيران دون أن يلحقه أذى لإيمانه العميق بالله، ثم هذا الذي ألقاه أخوته في البئر تخلصاً منه لكن مجموعة من العابرين في هذا المكان البلقع استطاعت أن تنقذه بأمر الله، كما أن طفلاً نجا من مذبحة أطفال مروعة حينما استطاعت أمه أن تلقيه في صندوق طفا فوق مياه النهر، فكيف يمتحننا الله فنهرب من امتحانه، إذ لا يمكن تحديد مصيرنا- أبداً- بعيداً عن الله؟؟

وانطلقت زغرودة تفتح الأذهان لطاقة من ضوء الأمل والفأل الطيب، الحمد لله، وبدأت وبسرعة مذهلة الترتيبات، حمل بعضهم العرش إلى خارج البيت حيث الساحة الواسعة، وكل الناس، من آل مستجاب- أو من غيرهم- يهتفون مهللين مكبرين.

في الساحة الكبرى للنجع تحلقت الجماهير مزغردة مصفقة، واستند الرابع على أكتاف معاونيه حتى خرج من العرش وسار قليلاً ثم توقف، حيث دارت عيونه فلمح في آخر أطراف الساحة واحداً يسحب في عنوة كبشاً ضخماً..

ثم فرش أحدهم الكليم المنمق بالخطوط البنية القديمة..
ووسط الدعاء والهتاف دفعوا بابن مستجاب، هذا المارد الضخم، إلى الكليم، حيث ضغطوا عليه ليلقى بجسده فوق الساحة كلها..
وتراقصت العصافير في السماء محاولة أن تتفادى الصدام مع الغربان.

ورفع أحدهم دماغ ابن مستجاب المارد فوق ركبته فأصبحت رقبته معدَّة للذبح، بعدها أنشد الواقفون دعاء الفداء، والتحمت السحب بجفون الكون ضاغطة على مجال الرؤية، اذبح ابنك، بسم الله الرحمن الرحيم، وفديناه بذبحٍ عظيم، فتحركت الأيدي بالكبش مقتربة، وارتفعت الذراع العجوز للرابع بالسكين في اضطراب وتوجس، وعيونه تنتظر الأمر باقتراب الكبش..

والرجل لا يزال حتى اليوم مستسلماً، رأسه فوق ركبة أحدهم، وعيونه ترقب السكين المشرعة من أبيه، والخروف يمأمئ من بعيد دون أن يقترب، والأغاني الفرحة المتراقصة تغرق الساحة، وتختلط- في زهو- بالرائحة العفنة، والشمس تجمع أشعتها غاربة تاركة الساحة وما فيها للأضواء والميكرفونات.